الأسطورة : قراءة في النشأة والنظرية والأنماط

أ.د. أحمد رشيد وهاب جاسم

Ahmed.wahab@uobabylon.edu.iq

جامعة بابل/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية

الملخص:-

ينشغل هذا البحث بملاحقة أبرز الفرضيات والنظريات التي حاولت تفسير نشأة هذه الظاهرة ومتابعتها، ومحاولة تقصي حقيقتها وطبيعتها وأنماطها، وما قيل فيها من آراء، وما اختلف فيها من فرضيات، وما تعورف عنها من أنماط وأنواع.

غير أنَّ هذه التصنيفات للأسطورة، ليست بالمتفق عليها من لدن الدارسين للأسطورة، فهي قد تتنوَّع مع تنوع موضوعات الأسطورة وتشكلاتها المختلفة، وقد تتقلَّص على نحو يدعو إلى ضم بعض هذه الأنواع إلى بعض. ولكنَّها – وبالرغم من ذلك كلّه – تبقى محاولات لفهم هذه المنظومة الفكرية، ومحاولة تقسيمها، بغية الوقوف عند أنواعها المختلفة ودراسة تنوعاتها، والوقوف عند موضوعاتها .

الكلمات المفتاحية: الأسطورة ،الإنسان البدائي ،الأسطورة الكونية ، الأساطير الرمزية ،الأساطير التعليلية.

The Myth:
A Reading of Origins, Theory, and Patterns

Prof. Dr. Ahmed Rasheed wahap
University of Babylon / College of Education for Human Sciencesn

Abstract:-

This research is concerned with tracking down the most prominent hypotheses and theories that have attempted to explain the emergence and follow-up of this phenomenon, and attempting to investigate its truth, nature, and patterns, as well as the opinions expressed about it, the different hypotheses regarding it, and the patterns and types known about it. However, these classifications of myth are not agreed upon by mythologists, as they may vary with the diversity of myth topics and their various formations.

But despite all of this, there remain attempts to understand this intellectual system and attempt to divide it, with the aim of identifying its different types, studying its diversity, and identifying its topics.

Keywords: *Myth, primitive man, cosmic myth, symbolic myths, explanatory myths).*

بسم الله الرحمن الرحيم

عتبة

في جدوى الدراسة ومديات متابعاتها:

تعدُّ الأسطورة أقدم مصدر لمعظم المعارف والخبرات الإنسانية، فهي ترتبط ببداية تاريخ البشر قبل أن يمارسوا ضروب العلم والمعرفة، وهي – مِن بعد ذلك – تكاد أن تمس المأثورات الدارجة بأبعادها المادية والروحية، ممَّا عكف عليه العلماء المتخصصون بالنقوش التي تقصُّ كثيرا من حياة الانسان في ذلك الماضي السحيق.

وتأسيسا على هذا، تكون الأساطير قد أسعفت الدراسات الإنسانية على اختلاف فروعها، بكثير من محاولات البحث . لذا فهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعددٍ من العلوم والمعارف والدراسات، التي يسعى الفكر الإنساني جاهداً إلى استلهامها، بغية ايجاد تعليلات كفيلة بحلٍّ مشكلات الكون وقضاياه الرئيسة، على الرغم من إنّ بعض الدراسات الحديثة التي تتناول الأساطير ليست غايتها إيجاد حلول لمشكلات الكون أبداً، وإنما غايتها اكتشاف القوانين التي كان يعمل بها العقل البشري آنذاك. ومن هنا تتأتى أهمية دراسة هذا المصطلح وتبيان مفاهيمه ومعالجاته لأبرز قضايا الإنسان وصراعه الأزلي مع الطبيعة.

فالأسطورة تنماز باحتوائها على مادة تاريخية وافرة ، فضلاً عن مقدرتها على المحافظة على أبرز العناصر الثقافية الموروثة، واثبات فاعليتها وتناميها في البيئة المادية والاجتماعية، لذا سينشغل هذا البحث بملاحقة أبرز الفرضيات والنظريات التي حاولت تفسير نشأة هذه الظاهرة ومتابعتها، ومحاولة تقصي حقيقتها وطبيعتها وأنماطها ، وما قيل فيها من اراء ، وما اختلف فيها من فرضيات ، وما تعرف عنها من أنماط وأنواع ...

أوّلاً : فرضيات النشأة وحيثيات الوجود:

تباينت الآراء واختلفت المقولات حول نشأة الأسطورة وآليات تكوينها، إلى درجة يصعب فيها ترجيح رأي على آخر؛ إذ تظل هذه المقولات والآراء مجرد فرضيات أو تأويلات أو وجهات نظر، تحاول الوصول إلى الحقيقة، أو الاقتراب منها.

وإنَّ مراجعة دقيقة لهذه الآراء والفرضيات ستكشف لنا عمق المأساة التي يعانيها الباحثون في تتبع هذه القضية، وتحديد ملامح نشأتها الأولى، وتتجذر المشكلة عميقاً ؛ لأنَّها – فيما نعتقد – مجرد تنقيبات او حفريات أثرية ، هدفها ازاحة التراب الزمني العالق في وجه الزمن السحيق ، وإماطة اللثام عن بقايا التأملات او المعتقدات القابعة فيه ، التي انفلتت من بين اصابع الزمن الغابر ، وقيض لها الحفر الاثري وجودا . وصولا الى استكناه جهود الانسان البدائي المحمومة ، وسعيه الحثيث ،بقصد منه أو بدونه ، لمعرفة ما يدور حوله ، ووساطته في ذلك كله ، تطلع ساذج ولكنه طموح ودؤوب في معرفة الطبيعة ، واكتشاف اسرارها بغية السيطرة عليها ، وتطويعها لصالحه ، وهو في بحثه هذا يريد أن يرسم معالم انسانيته ، عبر ما يجتهد في اكتشافه ، وصولا الى سيطرة تامة على الطبيعة ، يتحرر بموجبها من عبودية الطبيعة الى اشعاعات الفكر ونبضاته الحية .

ولعلنا في رحلتنا هذه ، سنصادق على ما ذهب إليه (ديرلاين)، في معرض حديثه عن الحكاية الخرافية ، بقوله : إنَّ الأسطورة بنية مركبة لا يمكن استكناه معناها لا بطريقة موحدة، فهي " تستمد تصوراتها من مراحل حضارية مختلفة أشد الاختلاف، ومن مجالات حياة متميزة غاية التمييز " [1] وربما لن نعود من رحلتنا هذه بخطاب فصل او نتيجة قاطعة في هذا المجال ، لما ذكرنا سلفا ، من تضارب الآراء واختلافها وتعددها ، على نحو يصعب فيه الترجيح والركون إلى رأي دون سواه .

إنَّ أوّل الآراء التي تواجهنا في متابعتنا لفرضيات الوجود ، تنطلق من طبيعة علاقة الانسان البدائي بعالمه ، ونظرته الشمولية (الكلية) لهذا العالم . اذ يرى هذا الإنسان العالم من حوله، بوصفه كلاً واحداً بأشيائه وموجوداته، ومن الطبيعي بعد ذلك، أن تقود هذه الذهنية الشمولية ذات الطبيعة الجماعية ، الى تكوين بنية اجتماعية تقوم على عقد صلات

(1) الحكاية الخرافية ، دير لاين ، ص٧٢

تصالح وقِران ، بين نظرة تلك الجماعة الى عالمها الطبيعي وعلاقتها به ، ومن ثم تكون هذه النظرة الكلية ، الموشور الذي تترشح عبره الاشياء والظواهر الحياتية والكائنات الحية ، ولقد قادته هذه النظرة الى ان يبقى حبيس عبودية الطبيعة ورهين حيثياتها ، يدور في فلكها ، ويتلمس حاجاته منها ، عبر ترضيها ، والخضوع لها ، على نحو دفعه ليكون عالة عليها ، ذلك كله نتيجة ، لتخلف ادواته المعرفية وبدائيتها ، وقصور خبرته ومحدوديتها ، كل ذلك ، دفعه الى تلمس وسائل جديدة يتخطى عبرها قصور معرفته ومحدودية ادواته ، ليقفز الى خلق عالم جديد ، واهداف معرفية اخرى ، عجزت ادواته وخبرته العملية سلفا من ان تصل اليه . فكانت الأسطورة مرجعيته التي يتخطى عوائقه وصولا الى تحقيق اهدافه ، التي كانت – في غالبها – تنجز بالوسائل السحرية والرمزية [1]، وهي بهذا لا تنجز هدفا يعجز عن تحقيقه القصور التكنيكي والاجتماعي والمعرفي فحسب ، وانما بقدرتها على صوغ وجود اكثر اكتمالا ، فتكون الأسطورة اذ ذاك ، خطة عمل وحافزا على انجاز ذلك الوجود المكتمل[2]؛ لذلك كانت المعرفة التي أتاحتها الأسطورة للإنسان البدائي ، أصلا لكل المعارف البشرية بعد ذلك .

لقد صار بوسعه ، بعد أن نمت قدراته على تجريد تجربته العملي وخبرته، " أن يفكر بالمفاهيم والرموز ومن ثم أصبح في إمكانه – في لحظة تالية من تطوره وارتقاء أدواته وعلاقاته – أن يجعل الصورة الرمزية الأسطورية واقعاً حقيقياً .ومن هنا كانت الأسطورة عند الإنسان البدائي خطة عمل لمستقبل قابل للتحقيق " [3].

ومن الفرضيات التي تحاول وضع يدها على نشأة الأسطورة ، والتكهن بطبيعتها ، الفرضية التي تهدف الى ربط الأساطير بتاريخ الاجناس البشرية ؛ محاولة بذلك البحث عن تفسير علمي لنشأة الأساطير ، منظورا اليها على اساس محلي ، اذ تنطلق هذه الفرضية من مقولة ان الناس الذين عاشوا في زمن بعيد عن زمننا ، كانوا ينقلون شفاها الى اجيالهم خلاصة تجاربهم ومواقفهم ، حيث لم يكن هناك تاريخ مدون ، مما اضطرهم الى ان ينقلوا تلك

(1) نظر :مقدمة في نظرية الأدب ،ص ٢٨.

(2) ينظر : المصدر نفسه ،٣٩.

(3) المصدر نفسه ، ص ٣٩

الأخبار بلغة مباشرة ، تميل في أحيان كثيرة ، الى الرمز والتمثيل[١] ،(الحضارات القديمة كلها كانت شفاهية تتناقل الأخبار) وبهذا تكون الأسطورة تعبيرا " عن الواقع غير الملحوظ بلغة الظاهرة الملحوظة " [٢] ولما كانت الأساطير – بحسب زعمهم - مرتبطة بالتاريخ المحلي للقبائل والشعوب ، فقد ترتب على ذلك ، اختلاف الأساطير وتنوعها ، من شعب لآخر[٣] .(إن اختلاف الأساطير بين الشعوب نابع من طبيعة ثقافة كل شعب، أي تتنوع الأساطير بتنوع الثقافات)، غير أنَّ هذه الفرضية لم تصمد طويلاً أمام البحوث والدراسات الانثربولوجية التي أعقبتها ، فلقد اثبت الدارسون أنَّ أساطير الشعوب – وإن اختلفت في غالب الأحيان في تشكلاتها وأنماطها – إلّا أنَّها تبقى محكومة بالتشابه من الناحية المضمونية والدلالية والرمزية [٤]اذ إن هذا التشابه ، على الرغم مما يفصل بعضها عن بعض من مسافات زمنية ومكانية بعيدة ، ليس بأقل مما بين الشعوب المختلفة من أمور متشابهة رغم انفصالها ، ويرجع بعض هذا التشابه الى تماثل الأفكار الأساسية عند هذه الشعوب [٥]، وحتى هذه النظرية دحضت فيما بعد.

كلُّ هذا، قاد أصحاب هذه الدراسة الى الانعطاف عن اصحاب الرأي الاول الى القول: بأنَّ الأسطورة تمثل مرحلة من الطفولة الفكرية التي عاشتها شعوب العالم بأسره، وعليه، وجد هذا التشابه .

وقد رأى أصحاب هذه النظرية أنَّ الأساطير وليدة التأمل في نظام الكون وفي خلق الإنسان؛ لذلك يذهب (اندرولانج) إلى القول إنَّ من الامور البديهية أن ينشغل الإنسان الأوَّل بالبحث عن أصل العالم والجنس البشري، فهما أمران شغلا أدنى العقول تطوراً، فوقف الإنسان، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، متسائلاً: من أنا ؟ومن أين جئت ؟[٦] وتأسيسا على ذلك ،

(١) ينظر: الأسطورة ، نبيلة ابراهيم ، ص ٩

(٢) بنية الأسطورة عند شتراوس ، ص ٦٥.

(٣) ينظر : الأسطورة ، نبيلة ابراهيم ، ص ٩.

(٤) ينظر: المصدر نفسه ، ص٩.

(٥) ينظر: الحكاية الخرافية، نشأتها ومناهج دراستها، فردريش مون دير لاين، ص ٣١

(٦) الأسطورة ، ص ١٠.

وغيره ، تكون الأسطورة – بحسب تصورهم – شكلا من أشكال التأمل الفلسفي ، او بعبارة أخرى ، مرحلة من مراحل التفكير الفلسفي ، شأنها شأن القضايا الفلسفية الاخرى، وقد نشأت نتيجة التأمل في ظواهر الكون وعلاقة هذه المظاهر بحياة الانسان على وجه الارض .

وإذا كان الانسان القديم قد صور الآلهة وصراعهم مع بعضهم في اساطيره الاولى ، فهو لم يفعل ذلك – والقول للدكتورة نبيلة ابراهيم – بدافع من اهتمامه بالآلهة بحد ذاتها ، وانما بدافع من تشخيصها بوصفها المصدر الاول للظواهر الكونية التي تجلب له الخير أو الشر ، وعليه ، تخرج الدكتورة بالقول : " ان الأسطورة اخراج لدوافع داخلية في شكل موضوعي ، والغرض من ذلك هو حماية الانسان من دوافع الخوف والقلق "[1].(هذا المفهوم ليس لنبيلة إبراهيم وإنما للفيلسوف راسل، فهو أول من قال إنّ الأساطير وكل الفكر الميتافيزيقي سببه خوف الانسان من المجهول وهو الذي صنعها)

على أنَّ هذا الرأي لم نجد له تقبلاً عند بعض الدارسين، أمثال (رجلان وماكس مولر) ، اذ تصور هذان الباحثان ، ان الانسان البدائي غير قادر على التأمل في الظواهر الكونية . فذهب (رجلان) الى انكار فكرة ان يكون الانسان قد انشغل بالكون ونظامه الى حد الوقفة التأملية والتعجبية والتساؤلية، ازاء ما يراه من ظواهر ، مفندا ذلك بقوله : إن الانسان العادي في عصرنا الحاضر قلما ينشغل بالكون ونظامه ، مؤكدا أن ابسط تعبير عن نظام الكون ، وعن المبادئ الاساسية للنظام الاخلاقي في الحياة يتطلب استعمال لغة واصطلاحات تجريدية ، وهذا ما كان يغيب ، بكل تأكيد ، عن العقل البدائي[2].

ولا يبتعد (ماكس مولر) عن هذا المعنى كثيرا ، فهو يدور في فلكه ، متبنيا له ، ومدافعا عنه بقوله : إن الأسطورة (ليست اكثر من وهم كبير ، فهي ليست خدعة واعية ، ولكنها خدعة ترتبت على طبيعة العقل الانساني ، وجاءت أولا ، وبوجه خاص ، نتيجة لطبيعة الكلام الانساني[3].

(1) الأسطورة ، ص ١١.

(2) نقلا عن الأسطورة ، نبيلة ابراهيم ، ص١٢.

(3) الدولة والاسطورة ، كاسيرر ، ص٣٩

فالإنسان البدائي كان يتحدث عبر الأسطورة لا عبر اللغة ، وان لغته لم تكن مؤهلة لان تحتضن دوافعه الداخلية او ان تعبر عنها ، في أقل تقدير ، ولهذا بدت له اشعة الشمس وكأنها أصابع الهة ... وهكذا[1].

وعليه ، فهي تشكل مرحلة من مراحل الفكر الإنساني فالتجني غير موضوعي على الأسطورة بأن نصفها بالتخلف؛ لأنَّه لا يمكن أن نحكمَ عليها انطلاقا من وعينا المعاصر، فهي مثلت مرحلة من تاريخ البشرية بحسب ما كان متوفر لديها من طرق تفكير، كما نحن الآن نمثل ذات المرحلة، وإن أردنا أن نحكم على شيء بالتخلف فهذا يعني أنها كانت لا تنتمي إلى عالمها

(تمثل البساطة ذاتها ؛ لأنها لا تزيد على مظهر من مظاهر بساطة الجنس البشري ، فهي ليست من نتاج اي تأمل أو فكر ، كما ان وصفها بانها ليست من نتاج الخيال الانساني ليس أمرا كافيا . اذ لا يستطيع الخيال تفسير قصورها ، وجوانبها الخيالية والوهمية ، ويقال ان قصور تفكير البداوة الانسانية هو المسؤول ، بمعنى أصح عن هذه الحماقات والنقائض ، فلولا هذا(الغباء البدائي) ما وجدت الأسطورة[2].

ويرى بعض علماء الأساطير ، وعلى راسهم ، أصحاب المدرسة الانثربولوجية ، التي يمثلها (جيمس فريزر) أن الأسطورة يجب ان تدرس عبر ارتباطها بالطقوس والشعائر الدينية ، وهي جزء منها ، فقد كان الانسان يمارس طقوسها على (الفعل المنطوق) المصحوب بالقول المنطوق بالفهم ليحدث في الطبيعة الفعل نفسه ، الذي يقوم هو بتمثيله[3]. فالأسطورة ، على هذا النحو، تكون قد (استمدت من الطقوس ، فبعد مرور زمن طويل على ممارسة طقس معين ، وفقدان الاتصال مع الاجيال التي اسسته ، يبدو الطقس خاليا من المعنى ، ومن السبب والغاية ، وتخلق الحاجة لإعطاء تبرير لطقس مبجل قديم ، لا يريد اصحابه نبذه أو التخلي عنه)[4]، وان الأسطورة لم تزد ان تكون كما لو كانت مناسك منطوقة[1]. وما الأسطورة الا الجزء القولي المصاحب للطقوس البدائية .

(1) يُنظر: الأسطورة: ص: ١٢.

(2) الدولة والاسطورة ، كاسيرر ، ص١٨-١٩

(3) ينظر : الأسطورة ، أحمد زياد محبك ، ص١٠١.

(4) الأسطورة في الشعر العربي قبل الاسلام ، احمد النعيمي ، ص٣٩.

﴿علاقة الأسطورة في الدين ينبغي أن يكون في بداية البحث وليس التطرق لها ضمنا، لأن أصل نشأتها ذات فكرة دينية﴾

إن المدرسة التطورية ، بريادة فريزر كانت تؤمن بان الجنس البشري قد مر بثلاث مراحل في رحلة تطوره الحضاري هي مرحلة السحر ومرحلة الدين ومرحلة العلم[٢]ولما كانت الأسطورة مرتبطة بطبيعة الحال ، بمرحلة السحر ، والسحر (اداء تمثيلي لطقوس معينة يقوم بها الانسان البدائي بقصد درء الشر عن نفسه وعن جماعته ، واكتساب الخير له ولجماعته[٣] فقد بقيت هذه الطقوس ملازمة للأسطورة، لا تريد فكاكا عنها .

وإذا ما أضفنا الى ذلك كله، علاقة السحر بالطقوس الدينية، تبدت لنا الأسطورة أكثر غموضا وإثارة للجدل، إذ إنَّ عملية الفصل بينهما من أكثر الأمور صعوبة لدى التناول الموضوعي للقضية .

يرى بعض الباحثين أنَّ السحر هو جزء من الشعور الديني القديم ، فقد كان يؤدي دورا رئيسا في حياة الناس قديما ، بل كان يشكل مظهرا من مظاهر الحياة الروحية عندهم يلجؤون اليه لمواجهة الأزمات والكوارث الطبيعية التي ظلوا عاجزين عن تفسيرها[٤].

وعليه ، يذهب (كاسيرز)الى ان الأسطورة والطقوس الدينية القديمة ، مجرد ظاهرتين قد رتبتا على الخوف ، ولكن الصورة التي يتحول اليها الخوف والتي لا يمكن قمعها أو قهرها كليا ، من المستطاع تغييرها ، وان كانت مشبعة بأعنف الانفعالات المزعجة ، فالإنسان يستطيع ان يتعلم منها فنا جديدا ، مما يعني اكتسابه القدرة على تنظيم غرائزه وآماله ومخاوفه[٥]واذا كان الانسان قد تقبل فكرة القضاء على وجوده الشخصي كظاهرة طبيعية لا مناص من حدوثها ، فهي الحقيقة عينها التي انكرتها الأسطورة ، وحاولت القضاء عليها ، فبينت ان الموت لا يعني فناء الحياة الانسانية ، وانما هو تغير في الصورة ، وحلول صورة

(١) ينظر : الأساطير السومرية ، ص٧ .

(٢) ينظر : الغصن الذهبي ، فريزر ، ص٤٨ وما بعدها.

(٣) الأسطورة ، نبيلة ابراهيم ، ١٢.

(٤) ينظر : الفكر الديني ، ص٣٥

(٥) ينظر : الدولة والاسطورة ،ص٧٣.

الحياة ، وان شر الموت قد تحول في الفكر الاسطوري الى حقيقة محتملة ، واصبح شيئا مفهوما يمكن احتماله[1].

وبالعودة الى عملية الربط التي اجراها(فريزر) بين الأسطورة والسحر ، نجد ان هذه المدرسة الوظيفية متمثلة ب(مالينو فسكي) تقف موقفا معارضا من فرضيته تلك ، مدعية ان السحر لا يرتبط (بمرحلة حضارية تتسم بالبدائية والهمجية – كما يرى فريزر- ولكن السحر متداخل مع الانشطة الروحية والفكرية الاخرى ، وهي الدين والعلم . فالسحر له وظيفة ويلبي حاجة نفسية عند الانسان بقدر ما للدين من وظيفة في الحياة الحضارية) [2].

نلخص من ذلك كله ، الى ان الأسطورة – على وفق كلام مالينوفسكي – ليست مجرد تعبيرات متخلفة انتجها الفكر البدائي في مرحلة عمره السحري ، ولكنها تعبيرات اشتركت في تكوينها النشاطات الفكرية والاجتماعية التي تواكبها ، واذا ما اردنا ان نفهم الأسطورة الأسطورة فعلينا اولا ان نتفهم الظروف البيئية التي احتضنت الاسطورة[3].

مع ظهور المدرسة الفرويدية ، انبثقت نظرة جديدة فتحت افاقا واسعة امام الدارسين والباحثين في الشأن الأسطوري ، فلم يعد ينظر الى الأسطورة على (انها واقعة منعزلة ، وتم الربط بينها وبين ظاهرة معروفة يمكن دراستها دراسة علمية ، ويمكن برهنتها تجريبيا ، وهكذا اصبحت الأسطورة تبدو شيئا منطقيا تماما) [4].. فالأسطورة ، على وفق هذا المنظور ، لم تعد مجرد تخطيطات خيالية هائمة لا ضابط لها ، بل هي عملية محكومة بعوامل نفسية وحضارية معقدة . هذه هي الركيزة الاساسية التي اعتمدتها المدرسة الفرويدية (النفسية) في وقوفها الطويل عند الأسطورة . فالأسطورة عندها، هي اخراج المكبوت من الانفعالات النفسية ، وهي شبيهة بالحلم – ان لم تكن صنوه- غير ان عنصر التأليف في الأسطورة يكون اكثر تنظيما وتنسيقا من الحلم (واذا كان فرويد قد انشغل كل الانشغال بالمشكلات الجنسية التي يكبتها الانسان في لا شعوره ، فتخرج بعد ذلك متنكرة في شكل رموز او

(1) ينظر : الدولة والاسطورة ، ص٧٣.

(2) الأسطورة ، نبيلة ، ص١٤.

(3) ينظر : الأسطورة ، نبيلة ابراهيم ، ص١٥.

(4) الدولة والاسطورة ، ص٤٩.

سلوك مرضي ، فان الرموز الاسطورية من وجهة نظره ليست سوى مظهرا اخر لهذه المشكلات الجنسية) [١].

أما صاحبه (يونج) فقد خطا بالمدرسة النفسية نحو مدارات ارحب ، فقد وقف بإزاء الرموز الاسطورية وقفة تأملية فاحصة ، استطاع عبرها ان يتوصل الى جملة من النتائج المهمة التي عدت ؛ فيما بعد ، فتحا مبينا في ميدان الحقل النفسي . فالرموز الاسطورية – بزعمه – لا تعبر عن رغبات جنسية مكبوتة – بحسب وصف فرويد – ولكنها وسيلة للوصول بالإنسان الى حالة التوازن بين القوى المتصارعة في نفسه . وان التعبير عن ذلك يكون عن طريق مستوى اللاشعور الجمعي [٢]. (فاللاشعور الجمعي لدى يونج يشتمل على جانب المضمون وجانب الشكل ، جانب المخزون وجانب البناء ، انه مخزون اثار الذكريات الكامنة التي ورثها الانسان من ماضي اسلافه الاقدمين ...وهو يشتمل على المخلفات النفسية لنمو الانسان التطوري ، والتي تتراكم نتيجة الخبرات المتكررة بعد اجيال كثيرة ، ويرجع يونج شيوع اللاشعور الجمعي وعموميته الى تشابه البناء العقلي لدى جميع اجناس البشر نتيجة للتطور المشترك) [٣].. ولهذا تعد الأسطورة ورموزها انماطا نموذجية يتوقف عندها الانسان ليكشف بها ، دائما وأبدا ، جزءا من نفسه ، ولعل هذا ما يفسر لنا سر خلودها بوصفها رموزا اسطورية ارتضتها الجماعة ، واستقرت في وعيها وضميرها على مر السنين .

يتبنى (ليفي شتراوس)تفسيرا حضاريا للأسطورة وذلك من تحليل بنائها على وفق نظام محدد، إذ(نظر الى الأساطير، التي تبدو مختلفة في الظاهر ، بوصفها تنويعات على عدد من الثيمات الاساسية، فتحت التغاير الهائل في الأساطير ثمة بنى كونية معينة) [٤].فالأساطير على حسب ليفي شتراوس ليست مجرد حكايات غارقة في الخيال وانما هي تجذرات تعيش في عقل الانسان ، فهي تشكل جزءاً من الاشكال الاساسية التي تكشف عبرها بناء العقل البشري ؛لأنها (نوع من اللغة ، يمكن فكفكتها(تفكيكها) الى وحدات فردية صوتية

(١) الأسطورة ، نبيلة ، ص١٨ .وينظر : الأسطورة والمعنى ، ص١٣.

(٢) ينظر : الأسطورة ، نبيلة ، ص١٩ .

(٣) الأسطورة والمعنى ، ص١٣ وما بعدها .

(٤) نظرية الادب ، تيري ايغلتون ، ص ١٦٩

(اسطوريمات) هي مثل الوحدات الصوتية في اللغة الصوتيات او الفونيمات لا تكتسب معنى الا حين تتركب معا بطرائق محددة)[1].تربطها علاقات، هذه العلاقات – بحسب شتراوس – متأصلة في العقل البشري ذاته؛ ولذلك (فإننا عند دراسة الأسطورة ما ننظر الى محتوياتها السردية، بقدر ما ننظر الى العمليات الذهنية الكونية التي تبني هذه الاسطورة)[2].

إن ليفي شتراوس في ابحاثه المستفيضة هذه يريد أن يصل الى حقيقة مفادها (أن الفكر البدائي لا يمثل مرحلة من مراحل التطور ؛ بل يمثل منطق الفكر البشري في كل زمان ومكان ووسيلتنا في الوصول الى الشكل الكلي لهذا المنطق البشري هي دراسة الأساطير على وفق المنهج البنائي[3].وهو _ بافتراضه هذا_ يعلن افتراقه عن الفريضتين التطورية و الوظيفية معا . فالتطورية ترى أن الفكر البدائي الذي يتكشف عبر الطقوس .والاساطير تمثل مرحلة متخلفة من مراحل الفكر الانساني . في حين ان شتراوس يرى أن الأسطورة _ بوصفها نتاجا للفكرة البدائي- تقدم لنا خطوطا اساسية لبناء الفكر البشري المتحضر .

اما موقفه من الوظيفتين (فهو يعارض منهجهم في دراسة الأسطورة ؛ ذلك ان العلاقة بين اشكال التعبير وحضارة المجتمع علاقة بنائية أوّلاً قبل أن تكون وظيفة)[4].

واجمالا ، نستطيع ان نقول في خاتمة هذا المبحث مؤيدين ما ذهب اليه السواح[5].من ان الأسطورة التي استعملها الانسان ليست الا وسيلة ايصال وقالب تغيير ، وهي لغة متميزها تحاول عبر مفرداتها وتعابيرها ايصال حقائق معينة ، وهي منهج له من المشروعية ما لبقية المناهج التي ابتكرها الانسان لاحقا .

(1) نظرية الادب ، تيري ايغلتون ، ص١٦٩وما بعدها.

(2) المصدر نفسه ، ١٧٠.

(3) الأسطورة ، ص ٢٢.

(4) الأسطورة، ص ٢٢.

(5) ينظر: مغامرة العقل الاولى ؛ص ٢٦ .

ثانياً / في أنواع الأسطورة وتصنيفاتها :

للأسطورةِ أنواعٌ متعددةٌ، وتشكلات مختلفة، تتنوَّع بحسب موضوعاتها، وباختلاف فلسفة مصنِّف الأسطورة وخلفيته الثقافية. ومن تصنيفاتها :

١- الأساطير الكونية :

تعد مسألة بداية هذا العالم والحياة عليه من كبرى المسائل التي شغلت فكر الانسان ، وكانت نتيجة هذا الانشغال ، التصدي لمعرفة السبب من خلق الانسان ، ومن قبله الكون الواسع ، فلا نجد شعبا من الشعوب الا وله اسطورة او مجموعة من الأساطير في هذا الشأن[١]. يعبر فيها عن ادراكه للحقيقة التي يحس بها[٢].، فهي – على وفق ذلك - محاولة خيالية ولكنها لا تخلو من منطق لفهم العلم والظواهر والاحداث[٣].. وذلك ما يعززه احد الباحثين بقوله : إن البدائيين يدركون الظواهر الطبيعية كما يدركها المتحضرون، إلّا أنَّ هذا الإدراك من الانسان البدائي كان مركبا من أحاسيس، مضافا اليها عواطف دينية[٤].

٢- الأساطير التعليلية:

هي الأساطير التي اهتمت بتفسير الظواهر وحدوثها ، وارجعت سببها الى وجود كائنات خفية تتحكم بها[٥]. وهذا التفسير يعد منطقيا في عصر يغيب فيه الاسلوب العلمي[٦]، ويرتبط هذا النوع من الأساطير بالنوع السابق ، الا ان النوع الاول يخلو من التعليلية ، نتيجة للعاطفة الشعورية بين الانسان والشيء . اما نوعنا هذا فيتأتى نتيجة للتأمل في الظاهر الغريبة التي تحتاج الى تعليل ، لذا تعد هذه الأساطير محاولة للتفسير المنطقي لتلك

(١) ينظر : مغامرة العقل الاولى ،ص٢٣.
(٢) الأسطورة نبيلة ابراهيم ،ص٢٧.
(٣) ينظر : الأسطورة ، مجدي محمد ، ص٦٩.
(٤) نقلا عن : نشأة الدين ، علي سامي النشار ، ص١٧.
(٥) ينظر الأساطير ، دراسة حضارية مقارنة ، احمد كمال زكي ، ص٤٨.
(٦) الأسطورة ، نبيلة ، ص٣٤.

الظواهر[1].التي تنطلق من رؤى خاصة وليدة تراكمات حضارية بسيطة ، وعليه ، فقد عدت هذه الأساطير بداية للعلم قبل الفلسفة[2].

٣- الاساطير الرمزية :

هي الاكثر تعقيدا عن سابقتيها ، وبذات الوقت ، هي الاكثر تقدما عن النوعين السابقين[3].، وقد هذا النوع من الأساطير الى عصور متأخرة حيث تطور الفكر البشري بشكل يكشف عن اعتزاز الانسان بشخصيته وقدرته الذاتية ، حتى اصبح ثائرا ضد تسلط الالهة[4].، حتى عدها احد الدارسين[5].، تعبيرا رمزيا عن الافعال والنشاطات الطقسية التي مارسها الانسان القديم ، مع ان هناك من يذهب الى ان الأسطورة تعبر عن مادتها ومرادها بصورة مباشرة دون الذهاب الى الرمزية ، وهي – في الوقت نفسه – ليست مجازا فنيا ، بل سمة واقعية للحكمة الاخلاقية والايمان البدائي .

﴿لا يمكن الاقتباس من المصادر هكذا، هذا فضلا عن خطأ في الصياغة، حتى عدّها –قيس النوري–تعبيرا رمزيا...﴾

٤- الاساطير الخاصة بالبطل المؤله :

تتناول هذه الأساطير شخصية مركبة او شخصية مزدوجة بين الانسان والاله ، في محاولة للوصول الى مصاف الالهة ، او الاقتراب منها على نحو معين ، لكن قدراته الانسانية تقف حائلا دون ذلك[6].والشخص الذي يلعب هذا الدور يتمتع بصفات ومكونات ومميزات ، لا يمكن ان تتوافر في غيره ، مع قدرة عالية على التكيف في الظروف الطارئة والغريبة ، تصاحبه ، في كل ذلك ، قوى خفية لا يمكن رؤيتها ، تمده بالمساعدة والعون[7].

(١) المصدر نفسه ، ص٣٤.

(٢) ينظر : الأسطورة ، شمس الدين ابراهيم ، ص٧٠ .

(٣) ينظر : الأسطورة ، نبيلوة ، ص٦٥ .

(٤) ينظر : الأسطورة ، نبيلة ، ص٧٠ .

(٥) ينظر : الأساطير وعلم الاجناس ، قيس النوري ، ص٢٠ و ص ٢٨.

(٦) ينظر : الأسطورة ، ابراهيم شمس الدين ، ص٧١ .

(٧)(ينظر : الأسطورة والتوراة ، قراءة في الخطابات الميثولوجية، ناجح المعموري ، ص٧٩.

٥- الأساطير الحضارية :

وهي تلك الأساطير التي تحاول التوثيق لرحلة الانسان من الطور الاول ، متخذا من الكهف سكنا له ، متنقلا يجمع قوته، وصولا الى مرحلة اهتدائه الى الزراعة ، ومن ثم تشكيله – فيما بعد القرية ثم المدينة ، وهكذا .. فكانت هذه الرحلة ، عبر الازمان الطويلة ، من ضمن الموضوعات التي تناولها (المسطر الاول) رصدا وتتبعا .ويمكن ان تعد هذه الأساطير ممثلة لمرحلة الاستقرار ، فبعد ان تمكن الانسان من حسم قضاياه الكبرى ، التي انشغل بها طويلا ، انتقل الى الصراع مع الحياة وانتزاع الحياة الاكثر تحضرا[١].

٦- الأساطير الطقسية :

وهي تلك الأساطير التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالعبادة ، مهما اختلفت أشكالها، وتعددت طرائقها، وهذا النوع من الأساطير كان يمثل الجانب الكلامي المصاحب للطقس قبل ان يكون حكاية تروي ما يجري فيها ، متخيلا لقوى سحرية تجعل من منشد هذه الأساطير قادرا على استرجاع الموقف الذي يصفه[٢]، مشكلة تراكمات نصية ، لم تتوقف الا بعد عصر التدوين الذي وضع حدا لها[٣].. ويعد هذا النوع من الأساطير ، من اول الأساطير ، وذلك لان التراث المقدس كان يأخذ شكل قصة ، ومن ثم عدت جزءا من بنية الدين وطقوس العبادة ، لكنها ، وبحسب القمني ، لم تحافظ على ديمومتها [٤].

غير أنَّ هذه التصنيفات للأسطورة ، ليست بالمتفق عليها من لدن الدارسين للأسطورة ، فهي قد تتنوع مع تنوع موضوعات الأسطورة وتشكلاتها المختلفة ، وقد تتقلص على نحو يدعو الى ضم بعض هذه الانواع الى بعض. ولكنها – وبالرغم من ذلك كله – تبقى محاولات لفهم هذه المنظومة الفكرية ، ومحاولة تقسيمها ، بغية الوقوف عند انواعها المختلفة ودراسة تنوعاتها ، والوقوف عند موضوعاتها .

(١) ينظر : الأسطورة ، نبيلة ابراهيم ، ص٣٧.

(٢) ينظر : الاساطير، احمد كمال زكي ، ص٤٦.

(٣) ينظر : الأسطورة والتوراة ، ناجح المعموري ، ص ١٤٠ .

(٤) ينظر : الأسطورة والتراث ، سيد القمني ،ص٢٤.

الخاتمة

تعد الأساطير وثيقة تاريخية مهمة، تتكشف عبرها، بداية تشكّل تاريخ البشرية؛ لاحتوائها على مادة تاريخية زاخرة ، تقص كثيراً من حياة ذلك الإنسان في تلك الحقبة الزمنية الطويلة .

وهي من بعد ذلك تحاول أن تقدم تعليلات كفيلة بحلّ مشكلات الكون وقضاياه الرئيسة، التي ظلّ الفكر الإنساني يسعى الى اكتشافها ، واستلهام ابرز عناصرها الثقافية الموروثة، واثبات فاعليتها على التنامي في البيئة المادية والاجتماعية.

فهي –أي الأسطورة – بنية ثقافية مركبة ، يصعب استكناه معناها بطريقة موحدة؛ لأنَّها لا تستمد تصوراتها من بيئة حضارية واحدة أو ثقافة واحدة أو مجتمع بعينه، بل هي تمثِّل تراكماً معرفيّاً متنوعاً، لبيئات حضارية متنوعة، وثقافات مختلفة ، وتصورات متعددة ، لمجتمعات متباينة، حاولت فهم واقعها، وإدراك معطياتها، وصولاً الى الفهم العميق لمعرفة سبب الوجود وإدراك العلة والكينونة.

المصادر

- الأساطير ، دراسة حضارية ، أحمد كمال زكي ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٥.
- الأساطير السومرية ، صموئيل نوح كريمر ، ترجمة : يوسف داود عبد القادر ، مطبعة القاهرة ، ١٩٧٥.
- الأساطير وعلم الاجناس ، قيس النوري ، جامعة الموصل ، د.ت
- الأسطورة ، أحمد زياد محبك ، المجلة الثقافية ، الجامعة الاردنية ، العدد ٣١، ١٩٩١.
- الأسطورة في الشعر العربي قبل الاسلام ، احمد اسماعيل النعيمي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ،١٩٩١ .
- الأسطورة ، مجدي محمد ، ابراهيم شمس الدين ، مجلة افاق عربية ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، العدد ٩، ١٩٩٧.
- الأسطورة ، نبيلة ابراهيم ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، الموسوعة الصغيرة ، بغداد ، ١٩٧٩.
- الأسطورة والمعنى ، كلود ليفي شتراوس ، ترجمة وتقديم : شاكر عبد الحميد ، مراجعة : عزيز حمزة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٦.
- الأسطورة والتوراة – قراءات في الخطابات الميثولوجية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٢.

- بنية الأسطورة عند شتراوس ، ادموند ليتش ، ترجمة : ناصر حلاوي ، الثقافة الاجنبية ، بغداد ، العدد ٢ ، ١٩٩١.
- الحكاية الخرافية ، نشأتها ومناهج دراستها ، فردريش فون ديرلان ، ترجمة : نبيلة ابراهيم ، مراجعة :عز الدين اسماعيل ، دار النهضة ، بغداد .
- الدولة والأسطورة ، ارنست كاسيرز ، ترجمة : احمد مهدي محمود ، مراجعة : احود حاكي ، القاهرة ، ١٩٧٢.
- الغصن الذهبي ، دراسة في السحر والدين ، جيمس فريزر ، ترجمة : احمد ابو زيد ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١